فكاهات

زيارة لندن (١)

حدث بعضهم عن نفسهِ القصة الآتية قال

دعاني انحراف خفيف المَّ بصحتي على اثر عنآء العمل الى الاستشفآء بالتنقل وتبديل الهوآء وسمحت لي الاشغال ان ازايل مسقط رأسي الى امدٍ غير بعيد فرتبت جميع اعمالي بحيث لا يقع فيها تعطيل في غيابي وسافرت قاصداً لندن وقد تناقني الى زيارتها ما سمعتهُ عنها من انها ام الدنيا في العظمة والحركة والعمل

فبلغت مرفأ لندن في صباح يومٍ راق جوُّهُ ورقَّ نسيمهُ فدهشت من كثرة البواخر والسفن المزدحمة فيهِ فمنها الذاهبة والآئبة وانراسية كانها قرية نمل في انتعاشها وهي تتحرك بكل انتظام فلا تصدم احداها الاخرى ولا تقف الواحدة في طريق اختها . ولما صعدت الى البر لاقاني عدد من خدم الأنزال فاخترت من بينها نزلاً واشرت الى السائق فاقترب اليَّ فركبت العربة واندفعت خيولها تجري بنا وكلما دارت عجلات العربة دورةً يزيد تعجبي من تلك المدينة العظيمة وحركتها الباهرة الآخذة بالعقول . وبلغت النزل فوجدتهُ من الطبقة الاولى في الابهة والترتيب فاخترت فيهِ محلاً لاقامتي وصرفت نهاري هناك طلباً للراحة من عنآء السفر

ونهضت في الصباح التالي فخرجت من النزل وانا لا ادري الى اين اذهب فتبعت الشارع الذي سرت فيهِ وما زلت انتقل من محل الى آخر حتى استوقف نظري بيت بسيط الهيئة قرأت على بابهِ انهُ محل سيداتٍ قد ارصدنَ انفسهنَّ لمرافقة الغربآء ممن يؤمّون تلك المدينة العظيمة . ففهمت ان هذه الشركة مخصصة لخدمة السيدات ولكنني وجدت نفسي مدفوعاً ان اطرق ذلك الباب ففعلت وفتح لي

(١) بقلم نسيب افندي المشعلاني

خادم صغير السن قادني الى غرفة رئيسة الشركة ومديرتها . ولما مثلت بين يديها رفعت قبعتي وحييت فردت تحيتي بابتسام لطيف ثم قالت ماذا تريد ايها السيد وبماذا يمكننا ان نخدمك . قلت قرأت على باب محلكم . . ثم توقفت عن الكلام . فقالت نعم واظنك اتيت راغباً في استئجار احدى فتياتنا لترافق زوجتك في زيارة لندن والتفرج عليها . فقلت لا فانني لست متزوجاً . قالت اذاً لشقيقتك . قلت لا فليس لي شقيقة . قالت فاذاً لاحدى نسيباتك . فقلت كلا ايتها السيدة فاني غريب وحيد في هذه البلاد لا اعرف بها احداً ولا صديق لي فيها ولا رفيق . فلما مررت امام محلكنّ اليوم خطر لي ان اتخذ دليلةً من شركتكنّ فترافقني في التفرج على المدينة وتشرح لي وصف محلاتها . قالت اننا مخصصون بخدمة السيدات كما لعل ذلك لم يخفَ عليك ولكن بما انك غريب وحيد فلا بأس من قضآء حاجتك . ثم قرعت جرساً على مكتبها فجآء الخادم فقالت لهُ ادعُ لي السيدة لوسي . قال لعلك نسيتِ يا مولاتي انها اخذت اجازتها امس ولا تعود قبل نهاية الاسبوع . فقالت حقًّا انني نسيت ذلك ولكن لا بأس فادعُ لي السيدة مرغريت . قال ومرغريت ايضاً تقيدت منذ اول امس بأسرة ليدمان وستبقى معها خمسة ايام . ففكرت الرئيسة هنيهةً وقالت الحق معك يا هذا وارى ذاكرتي في ضعف عظيم اليوم فهل السيدة ماري هنا . قال نعم ولكن . . فلم تدعهُ يتم الحديث وامرتهُ للحال ان يناديها . اما انا فلبثت انتظر وانا متعجب من نفسي لما أقدمتُ عليهِ وبعد حين فتح الباب ودخلت منهُ فتاةٌ في غاية الرقة والرونق والجمال لكنها نحيفة الجسم قد ارتسم على وجهها الجميل بعض علامات الذل والمسكنة مما استوجب انتباهي الشديد اليها . فقالت لها الرئيسة يا ماري ان السيد يرغب في اتخاذ دليلةٍ تريهِ لندن ولا يوجد الآن سوالكِ فأودّ ان تتفقي معهُ على الوقت وتكوني عند رغبتهِ من الآن . فقالت الفتاة بصوتٍ يأخذ بمجامع القلوب برقتهِ ويزيدهُ فعلاً في النفس انحناآ رأسها السمع والطاعة يا مولاتي فسأذهب لالبس قبعتي وقفازيَّ وارجع في الحال . ولما خرجت تكلمت مع الرئيسة فعلمت انها تتقاضى اجرة الادلآء خمسة شلينات عن الزيارة الواحدة او ثلاثة شلينات عن كل ساعة او ليرة ونصفاً في اليوم

فاتفقت معها على استئجار الفتاة يوماً كاملاً ودفعت اليها القيمة . وما كدت افعل حتى عادت ماري متأهبةً للخروج فدهشتُ لدى مشاهدة جمالها المفرط ولكنني رأيت في نظرها انكسارًا يدل على انها غير حاصلة على تمام السرور بهذه الخدمة . فتجاهلت ذلك وشكرت الرئيسة وخرجت تتبعني دليلتي . ولما سرنا قليلاً قالت لي الافضل ان نبتدئ بزيارة كنيسة وستمنستر لانها اقرب المشاهد الينا فلننتظر مرور الترام الذي يوصلنا اليها . فقلت ولماذا لا نتخذ لنا عربة تقلنا الى هناك . قالت لان اجور العربات فاحشة في لندن اذ هي شليلنان عن كل ساعة وفي الترام لا ندفع الا بنساً او بنسين . فتبسمت تبسماً خفيفاً وقلت في نفسي لو عرفت الفتاة من انا وان ثروتي تقدَّر بالملايين لما اهتمت في التوفير عليَّ من نفقتي ثم قلت لها اني جئت لندن بقصد النزهة فقط لا الاقامة فيها طويلاً فلا بأس من زيادة الانفاق قليلاً . واذ ذاك مرَّت عربة فاستوقفتها وركبنا فيها بعد ان امرت دليلتي السائق ان يأخذنا الى الكنيسة المذكورة ثم جعلت تقص عليَّ شيئاً من تاريخ المحل الذي تقصدهُ وتشرح لي عن المناظر التي نمرّ بها في طريقنا . اما انا فاعجبتني عذوبة صوتها وحسن التفاتها وبلاغة تعبيرها فلم اعد اهتم بشيء سوى النظر الى جمالها والتأمل في محاسنها . وبلغنا تلك الكنيسة المشهورة فدخلناها وكانت ماري لا تضيع دقيقةً من الوقت دون ان تفيدني فيها وتحول نظري الى الآثار القديمة والتماثيل التي تستحق حقيقةً الزيارة وتفريغ الوقت للتفرج عليها . ولما تناصف النهار شعرت بالجوع فاعلمتها بذلك وسألتها ان تدلني على نزل نتناول الغداء فيهِ . فقالت ولمَ لا نعود الى نزلك فنتناول فيهِ الطعام الذي سيضاف على حسابك على كل الاحوال بدلاً من الذهاب الى محلٍّ آخر . فقلت لا بأس من ذلك وكما اعلمتك سابقاً انني قد خصصت لسفري هذا مبلغاً لا تؤثر في كميتهِ مثل هذه الجزئيات . قالت انت وما تحب وسأوصلك الى نزل كارلتون فهو قريب من هنا وهو خاص بالاشراف والاغنياء ففي اية ساعة تحبّ ان اعود الى خدمتك بعد الغداء . فقلت ولماذا لا تبقين معي فتأكل معي . قالت لا فان هذا المحل لا يدخلهُ غير الاغنياء وانا لست منهم فلا اقدر ان ادفع قيمة غدائي ولا ينبغي ان

احملك ذلك لان اجرتي التي دفعتها في المحل تشمل كل شيء . فقلت بل ارجو ان تقبلي دعوتي ولاسيما لانني غريب اجهل عوائد البلاد وربما قدموا لي اسماء مآكل لا اعرفها فاودّ ان تبقي معي وترشديني في كل ذلك والححتُ عليها حتى قبلت بالرغم عنها فدخلنا المطعم واتخذت مائدةً منفردة في احدى زوايا المحل جلست اليها بازاء دليلتي وكلفتها ان تأمر لنا بالطعام . وما استقرّ بنا المقام حتى قرأت في تصرفاتها العظمة وعلمت ان في عروقها دم اسرةٍ شريفة . وساقنا الحديث فاخبرتها شيئاً من تاريخ حياتي وان والديَّ توفيا وتركاني صغيرًا لا املك شروى نقير فاخذتني عمتي الى بيتها لتربيني وكأنها استثقلت حملي فرغبت في اهلاكي ولذلك كانت توقظني باكرًا جدًّا في الصباح وتلقي على عاتقي جميع اشغال البيت فلا اعرف الراحة البتة واذا جاء موعد الطعام كانت ترسلني لقضاء بعض الحاجات فلا اشاركها في طعامها حتى اذا عدت رمت اليَّ ببعض الكسر اليابسة . و بقيت على هذا الى ان بلغت الثامنة من عمري فشعرت بارتفاع ضبابة عن بصري وعزمت على مغادرة عيشة الذل فهربت عن البيت ومازلت اجري مسرعاً طاوياً المسافات حتى خيم الليل فبت في الخلاء واستأنفت المسير في الصباح حتى بلغت بلدةً اخرى وانا على آخر رمق من الجوع والاعياء . ويسر الله لي وجود شخص رثى لحالتي فاخذني اليهِ وقدم لي طعاماً فأكلت ونمت يوماً كاملاً . و بعد ذلك سألني عما اعرف لعلهُ يتمكن من استخدامي فاخبرتهُ اني لم اتعلم شيئاً في حياتي. فهز كتفيه وقال اذًا لا امل في توليتك عملاً في محلي . ولما رأى على وجهي علامات اليأس والحزن قال سأتخذك لتقف على باب المحل وتأخذ الرسائل الى البريد فشكرتهُ واستلمت تلك الوظيفة للحال . و بقي كلامهُ يتردد في ذهني انني لو كنت متعلماً لأصبت خدمة افضل فصرفت اهتمامي الى هذه الجهة وكنت اسرق من اوقات الفراغ فادرس بنفسي وساعدني ذكاءٌ كان على ما يظهر خلفهُ لي والدي فتقدمت وتعلمت ما اعرفهُ الآن وان يكن قليلاً . ثم فتح الله عليَّ بان تمثلتُ طريقة تقلل نفقة البترول فجعلت اهتم بهذا الاختراع حتى تمَّ لي فصنعت آلةً اذا وضعت على ما يستعمل فيهِ البترول زادت حرارتهُ وقلَّ مقدار المحرق منهُ . وماكاد يشتهر هذا الامر حتى اسرع

اليَّ المتموّلون واصحاب الشركات يعرضون عليَّ مشترى هذا الاختراع بالاثمان الباهظة فلم اقبل وأخيرًا وجدت رجلاً أسلفني مبلغًا من المال استغرقتهُ في اصلاح اختراعي وابرازهِ للوجود فلم يبقَ بيت في بلادنا لم يعرفهُ وما تمت السنة الاولى حتى وفيت ما استدنتهُ و بقي معي ما لا يقلّ عن ألفي ليرة وما زلت في تقدم ونجاح الى الآن

ولما فرغت من الحديث وكانت دليلتي تسمعهُ باصغآء تامّ نظرت اليها كمن يتوقع ان يسمع منها تاريخ حياتها . غير انها بقيت محافظة على كتمان امرها ولم ادرك شيئًا منها سوى تنهد عميق اندفع من صدرها حقق لي انها في شقآء . وكنت قد ملت اليها ميلاً شديدًا وآليت على نفسي ان اسبب لها السعادة وعزمت ان ألقي نصف اموالي بين يديها ان تحققت انها تقبلهُ

و بعد تناول الغدآء خرجنا فاقتادتني ماري الى دار الآثار البريطانية غير اني لم اشاهد بين جميع كنوزها وتحفها وغرفها وتماثيلها سوى دليلتي ماري ولم افهم شيئًا من جميع ما قصتهُ لي عن تواريخ ووصف ذلك المكان لاشتغال افكاري بها . ولما انتهى النهار رأيتها تستعد لمفارقتي فقلت ومتى نلتقي بعد الآن . قالت لا امل في لقآئنا بعد الا اذا كنت في حاجةٍ اليَّ غدًا وطلبتني من الشركة كما فعلت اليوم . قلت سأفعل بدون شك ان شآء الله لانني لم ارَ شيئًا بعد من هذه المدينة . ونكن اخبريني هل انتِ متعلقة بالشركة ليلاً ونهارًا . قالت لا فاذا انتهى النهار بثت مطلقةً الى الصباح الثاني . قلت اذًا احتاج اليكِ هذا المسآء لتقوديني الى الاوبرة فان هذا من واجبات الادلآء ايضًا وبما انني سأستخدمكِ في وقتكِ الخاص فعليكِ انتِ تعيين الاجرة . فصبغ الاحمرار وجنتيها وقالت أواه كنت اتمنى ذلك ولكنني لا استطيع الخروج ليلاً . قلت ولمَ أوَلا تعتقدين اني شريف احافظ عليكِ واعاملكِ كشقيقتي لو كان لي شقيقة . قالت العفو يامولاي فليس هذا قصدي ولكن لي والدة عاجزة عمياء واختًا اصغر مني لا اقدر ان اتركهما وحدهما ليلاً ولا سيما شقيقتي فانها اذا عدت الى البيت لا تفارقني لحظة . قلت انني بكل سرور ادعو شقيقتكِ لتأتي معنا ولا اظن والدتكِ ترفض سرور بناتها . فمسحت ماري دمعةً

انحدرت على وجنتها وقالت لا شك ان لوسي سيكون سرورها لا يقدَّر لو تم ذلك فانها لم تدخل الاوبرة قط

واجبرت ماري على القبول فقبلت واتفقنا على ان انتظرها في النزل الى ان تذهب فتستأذن والدتها وتحضر اختها فنتناول الطعام ونذهب معاً الى الاوبرة . ولما ذهبت اسرعتُ فاكتريت مقصورةً (لوجاً) وأمرت باعداد عشآء فاخر صففت عليه الورد والزهور ثم ارتديت ثوبي الاسود ومكثت انتظر ماري حتى عادت تقود شقيقتها وهي تشبهها في كل شيء الا انها اصغر منها ودونها جمالاً

وبعد التحية جلسنا الى المائدة وكانت لوسي كثيرة الكلام بخلاف شقيقتها فجعلت تستحسن الزهور واصناف الطعام وتقول كل فكر يخطر لهـا فتحققت انني استطيع ان اعرف منها ما لم اعرفهُ من شقيقتها . واستدرجتها في اثنآء الحديث فعلمت منها ان والدها كان من اشراف انكلترا فاحب امها وتزوج بها ولما لم تكن من طبقتهِ في الشرف استآء اهلهُ ونبذهُ والدهُ فاضطر الى العمل ليعيش . وكان غير متدرب على الشغل وغير معتادٍ لهُ فلم يكن يحصل سوى الضروري لسد حاجاتهِ واثر فيهِ الهم والفقر فمرض ومات بعد ولادة ابنتهِ الثانية بمدة قصيرة . واهتمت الام بتربية ابنتيها فكانت تعمل نهارًا وليلاً حتى اصابها مرض في عينيها ففقدت بصرها وسقطت يوماً عن سلم البيت فانكسرت رجلها واصبحت في البيت ثقلاً على ابنتيها ليس الاّ . وكانت الكبرى ماري قد بلغت الثالثة عشرة فطلبت الاستخدام لتعول والدتها وشقيقتها فلم تجد محلاً يمكنها فيهِ ان تراهما في كل يوم سوى شركة الادلآء . فانتظمت فيها ولا تزال الى الآن تعمل نهارًا وتجيء مسآء بما تكسبهُ فتنفقهُ في لوازم البيت من طعام وملبوس وما شاكل ذلك

وكانت كل كلمة من هذا التاريخ تفتح في قلبي جرحاً اليماً اما ماري فاجتهدت كثيرًا في مقاطعة شقيقتها وتسكيتها فلم تفلح واخيرًا سترت وجهها بمنديلها وظهرت عليها علامات الحيآء وعزة النفس وتفضيلها الموت على البوح بما هي فيهِ . وشعرت بذلك فاجتهدت في ان اسرّي عنها وكان قد دنا موعد التمثيل فنهضنا عن المائدة

وكانت العربة في انتظارنا فذهبنا الى الاوبرة

ولما رأيت جماعة السيدات بملابسهن الحريرية المزركشة بالذهب والحجارة الثمينة وددت ان ألبس ماري زيادة عن جميعهن وكانت هي وشقيقتها بلباسهما البسيط اجمل في عيني من جميع من رأيت فكانت لوسي الصغيرة متهللة الوجه ممتلئة حبورًا وكانت ماري اشبه بتابليون في جزيرة منفاهُ ينظر الى فرنسا بعين الامل فيسرّهُ مرآها وعلامات اليأس على وجههِ تدل انهُ لن يتمتع بها بعد

وبينما نحن في منتصف التمثيل رأيت ماري قد صبغ وجهها الاحمرار وتراجعت الى داخل المقصورة فاستغربت ذلك ولكنها اعلمتني انها رأت في اسفل الاوبرة رئيستها وكانت هذه تنظر اليها بمنظارها فتراجعت ماري حياءً لانها وهي الفقيرة في مقصورة والرئيسة صاحبة الغنى على كرسي . اما انا فلم اعلق اهميةً كبيرة على هذا الامر وبقينا الى نهاية التمثيل ولما خرجنا طلبت ان اوصلها الى بيتها فرفضت ماري وعلمتُ انها لا تود ان ترى حقارة منزلها فاوصيت السائق ان يوصلها حيث تأمرانهِ وعدت الى النزل

وفي الصباح الثاني قصدت الشركة فاستقبلتني الرئيسة وطلبت منهـا تجديد استئجار دليتي يومًا آخر فاجابتني بجفآء انها مقيدة مع سواي في ذلك اليوم فاذا شئت يمكنني اخذ غيرها . قلت انها حتى منتصف الليل لم تكن مقيدة مع احد فلمَ تمنعينها عني . قالت وهي تكاد تتميز غيظًا كنت اظنك من القصاد الذين يأتوننا ليعرضوا علينا طلباتهم ولم اكن اعلم انك مدير الشركة تناقشني على اقوالي . قلت عفوًا يا مولاتي فاني لم اقصد مناقشتك ولكني اعتدت خدمة ماري واعجبني وصفها لما تريني اياهُ فلا احب ان استعيض بسواها وان كانت مقيدة اليوم فهل تكون مطلقةً غدًا . قالت لا لا فلن تكون ماري مطلقةً بعد الآن الا لغيرك . فصعد الدم الى رأسي ولكنني كظمت الغيظ وقلت وهل لكِ ان تسمحي لي بمواجهتها دقيقة واحدة . قالت كلا لن يكون ذلك برضاي . وشعرت انهُ لم يعد في امكاني كبح جماح الغيظ وخشيت ان يظهر مني ما لا احب امام سيدة فخرجت وقد صممت ان ابحث عن بيت ماري

حتى اجده واواجهها في المساء وفي نفسي امور

وقضيت نهارين في البحث والتنقيب حتى اهتديت الى بيت ماري فقرعت الباب ولما أُذن لي في الدخول وهم لا يعلمون من الطارق دخلت فوجدت دليلتي الى جانبٍ مستخرطةً في البكاء ووالدتها الى الجانب الواحد صامتة كانها تناجي خالقها ولوسي الى الجانب الآخر تجتهد في تعزية شقيقتها . ولما رأتني ماري نهضت وقالت بصوت ملؤهُ التأثر والأسف بربك يا مولاي اذهب عنا فقد كان طالعك علينا سوءا . قلت ولماذا يا ترى . قالت ان دعوتك لنا بالامس ومشاهدة الرئيسة لي في مقصورة الاوبرة ملأتها غيظاً وحنقاً . وحالما ذهبت في الغد الى الادارة استقبلتني بالشتائم ثم طردتني قائلةً ان التي تجلس في مقصورة لا تكون في حاجةٍ الى الاستخدام وتراني الآن عادمة وسائل المعيشة وما كنت لأهتم بنفسي لولا . . . وخنقتها العبرة فلم تستطع اتمام الحديث . اما انا فوقفت هنيهةً ثم قلت لقد صدقت الرئيسة فان التي تكون في مقصورة لا تحتاج بعد ذلك الى الاستخدام وقد جئت الآن لاغنيكِ عنهُ باتخاذكِ زوجةً لي واملي ان لا ترفضيني . فنظرت اليَّ نظرًا اخترق صدري وقالت لا ان هذا ليس بممكن فانت شريف غني وانا فقيرة . قلت نعم ولكنني حرٌّ في مالي ولست كوالدكِ لاخشى ان يطردني ابواي واصبح فقيرًا فلديَّ من المال ما يكفي لنعيش كما اود ان تكوني . وكانت لوسي تسمع فصاحت بشقيقتها اقبلي اقبلي يا ماري فأقل ما في ذلك انكِ تغيظين رئيستكِ . وكانت هذه الكلمة سبباً لضحكي فتبسمت ماري واتخذت ابتسامها علامة القبول و بعد ان اطلعنا والدتها على ما جرى جئت تسأل لنا البركة وتقدم لله الشكر على ارسال من يعتني بتلك الاسرة المسكينة

وما مضت على ذلك الا ايام قلائل حتى اقترنت بماري وفي نفس الليلة قرأت الرئيسة الخبر في الجرائد ثم جاءت مساءً الى الاوبرة فوجدتنا في مقصورة وماري بين جمهور الحضور كالشمس يخفي نورها نور النجوم ورأت الحلي والجواهر على صدر زوجتي وشقيقتها فغصّت بريقها